بلاغـــة التّتْمِيم والتكميـــــل في القـــــرآن الكريـــــــــــــــم

د/ قويدر قيطون .جامعة.الوادي

ملخـــــــــص:

يعرض هذا المقال لأسلوبين بلاغيين متميّزين ، لهما أثرهما الواضح في تجويد الخطاب ، وتصحيحه ، ودقته ، ولا تقف فائدتهما عند ضبط النص ، وحسن إحكامه فقط؛ بل نجد لهما إضافة متميّزة على مستوى جمالية الخطاب ، بما يضفيانه عليه من فنية وروعة لها أثرها البالغ على المتلقي.

ونحن نعرض لهذين الأسلوبين معا لأنهما متداخلان متلازمان ، استعملتهما العرب ، وعلى سَننها جاء الخطاب القرآني المعجز ، الذي نحاول أن نقف عند بلاغية هذين الأسلوبين فيه.

Summary

This article presents two distinctively eloquent styles; their impact is clear in perfecting the speech, and determining the accuracy. They are not useful when adjusting the text and its provisions only; but they add the distinguished level of the aesthetic discourse, as they give it the artistic splendor which in turn has its impact on the recipient.

We highlight these two styles because they are intrinsically interconnected, as used (employed) by the Arabs; and in the same fashion, they are present in the Miraculous Qur'an through which we investigate their eloquence.

مقدمة:

يعتبر التكميل والتتميم من الأساليب البلاغية ، التي كان لها حضورها اللافت في الخطاب العربي شعرا ونثرا ، كما كان لهما الحضور المتميّز في الخطاب القرآني ، حيث تظهر دقة استعمالهما وتناسبهما مع السياق مما شكل إضافة هامة للمعنى ، لذلك آثرنا البحث في هذين الأسلوبين المتداخلين :

- فما هو التتميم ؟ وما هو التكميل؟ وما الفرق بينهما؟
- ماهي أهم التسميات المتداخلة مع هاتين التسميتين، وكيف نفرق بين ذلك كله ؟
- ما الإضافة البلاغية التي أحدثها أسلوبا التكميل والتتميم في القرآن الكريم ؟ وهل هما صنعة لفظية أم ضرورة معنوية؟

1- **التتميم** :

لغة : تَمَّ الشيءُ تَمًّا ،وتَماما ، واستَتَمّه ، وتَمام الشَّيء ، وتَمامَته ، ماتَمَّ به ، قال الفارسي : تمام الشّيء ، وتمَّ به يتمُّ جعله تاما .

وأنشَد ابن الأعرابي : إنْ قُلْتَ يَومًا نَعَمْ ، فَتِمَّ بِهَا *** فَإِنَّ إمْضَاءَهَا صِنْفُ مِنَ الكَرَمِ.

وتتمة كلّ شيء ما يكون تمام غايته كقولك هذه الدّراهم تمام هذه المئة ، وتتمة هذه المئة.[1]
أما اصطلاحا : فقد قال الزركشي : التّتميم : وهو أن يتمّ الكلام ، فيلحق به ما يكمله ، إمّا مبالغة أو احترازا ، أو احتياطا ، وقيل : هو أن يأخذ معنى فيذكره غير مشروح ، وربما كان السامع لا يتأمله ليعود المتكلم إليه شارحا.[2]
وقال صفي الدين الحلي :« التتميم عبارة عن الإتيان في النظم أو النثر بكلمة أو جملة إذا زيدت في الكلام التام أفادته حسنا متمّما لحسنه»[3]
و قال ابن رشيق:« معنى التتميم أن يحاول الشاعر معنى ، فلا يدع شيئا يتمّ به حسنه إلا أورده ، وأتى به ؛ إما مبالغة ، وإما احتياطا واحتراسا من التقصير. [4]
وهو أيضا: أن يؤتى في كلام لا يوهم في خلاف المقصود بفضله.[5]
وعليه نرى أن هناك تناسقا بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي ، فمعناهما يدور حول زيادة الناقص ليكون تامًا، بإضافة لفـظ في الكلام ، إذا طرح نقص حسنه وضعف معناه.
و غايته بلاغية بحتة قد تكون للمبالغة ، أو لرفع الإبهام ، وغير ذلك مما سنقف عنده عندما نذكر بعض النماذج الشعرية والقرآنية « فهو (أي التتميم) في مصطلح علماء البيان عبارة عن تقييد الكلام بفضلة لقصد المبالغة، أو الصيانة عن احتمال الخطأ أو لتقويم الميزان» [6]

2- **التكميـــــــــــل** :

لغة: الكمال والتّمام ، وشيء كَمِيل كَامِل ، جاءوا به على كَمُل، وتَكَمَّل كَكَمُل ، وتكَامل الشيء وأكملته أنا ، وأكملتُ الشّيء أي أجملته وأتممته ، وكَمّلهَ أتمّه وجمّله.[7]
يعرفه صاحب التحبير بقوله : « هو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه دَخَل ، فيفطن له ، فيأتي بما يخلصه من ذلك »[8]، وأفرد له بابا مستقلا أيضا، وقال عنه:« وهو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من معاني المدح أو غيره من فنون الشعر وأغراضه ، ثم يرى مدحه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل ، فيكمله بمعنى آخر ، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة ، ورأى مدحه بالاقتصار عليها دون الكرم مثلا غير كامل ، فكمله بذكر الكرم ، أو بالبأس دون الحلم ، وما أشبهه »[9] ، وهو " عبارة عن إتيان المتكلم أو الشاعر بمعنى تام من وصف أو مدح أو ذم ،أو غير ذلك ...ثم يرى الاقتصار على الوصف بذلك فقط غير كامل ، فيأتي بمعنى آخر في غير ذلك الفصل الذي وصف به أولا.[10]
ومعنى هذا أن يكون في الكلام – بدون التكميل- بعض ما يلام عليه القائل، حيث يمكن أن يوهم بما لم يرده، فيأتي التكميل ليزيل هذا الوهم، ويضع الكلام في صورته المرادة ، ويبعد ما يمكن أن يوجه إليه من عيب قد يتسرب إلى ذهن السامع ، وفي هذا حفظ للمعنى ووقاية له من توهم خلاف المقصود ، وأما وجه تسميته بالتكميل ، فلتكميله المعنى بدفع إيهام خلاف المقصود عنه.[11]
ومن ذلك قول طرفة بن العبد يمدح قتادة بن مسلم الحنفي:
فَسَقَى دِيَارَكَ – غَيرَ مُفْسِدَهَا ** صَوْبُ الرَّبِيعِ ودِيمَةٌ تَهْمِي [12]

فلما كان نزول المطر بكثرة يؤدي إلى فساد الديار وخرابها، فقد احترس طرفة من وقوعه في هذا العيب، وأتى بقوله: (غير مفسدها) ليزيله ويبعده عن مراده.. ومن أجل هذا عيب على ذي الرمة قوله:

أَلَا يَا اَسْلَمِي يَا دَارَ مَيْ عَلَى البِلَى ** ولَا زَالَ مَنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ

فقال أبو هلال العسكري: "فهذا بالدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها ؛ لأن القطر إذا انهل فيها دائما فسدت".[13]

والتكميل يأتي على وجهين ، إذ قد يقع متوسطا الكلام كما في قول طرفة السابق

فَسَقَى دِيَارَكَ – غَيْرَ مُفْسِدَهَا **صَوبُ الرَّبِيعِ ودِيمَةٌ تَهْمِي

وقول ابن المنقذ يصف فرسا:

صَبَبْنَا عَلَيْهَا – ظَالِمِينَ- سِيَاطَنَا ** فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاع وأَرْجُلُ [14]

فقوله: (ظالمين) تكميل جيء به وسط الكلام؛ لدفع توهم أن يكون الضرب لهذه الفرس قد تم من أجل بلادتها وبطئها.[15]

أو قد يقع في آخر الكلام، كقوله تعالى: (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ). [16]

فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين؛ لتوهم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قيل: (أعزة على الكافرين) علم أنها منهم تواضع لهم، ولذا عُدِّي الذل بـ (على) لتضمينه معنى العطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.

ومنه قوله تعالى: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)[17]، فقوله: (من غير سوء) تكميل جيء به في آخر الكلام لدفع توهم أن يكون هذا البياض الذي يصيب يد موسى – عليه السلام- ناتجا عن مرض كالبرص والبهق وخلافه

والتكميل طريقة من طرائق الإطناب بالزيادة، دقيق المسلك، عظيم الفائدة؛ لأنه في الكلام مظهر من مظاهر فطنة المتكلم وحرصه على صيانة كلامه من أن يفهم منه ما لا يريد ؛ مبالغة في الحيطة والحذر، ولزوما للدقة في تحرير المعنى المراد. فالتكميل يأتي في الكلام الذي يوهم خلاف المقصود؛ ليزيل هذا الوهم، ويرفع عنه اللبس، ويبعد عن المعنى ما يمكن أن يوجه إليه من عيب قد يتسرب إلى ذهن السامع ، وفي هذا حفظ للمعنى ووقاية له ، وعليه فالتكميل مقتضى حال يتطلبه نظم الكلام ؛ صيانة للمعنى من الإبهام .

ويمكن إجمال غايته البلاغية في :

- الاحتياط ، وصيانة الكلام عن احتمال الخطأ وفساد المعنى.
- إكمال المعنى ، ودفع التّوهم (الإيهام) الموجب للعيب والنقص في الكلام.
- المبالغة في المعنى المراد من مدح أو ذم ، أو غيرها من المعاني.
- تحسين الكلام وتجميله من خلال هذه الزيادة .

وقد جعل أكثر علماء البلاغة الاحتراس والتكميل شيئا واحدا،[18] ،فالتكميل مرادف للاحتراس، وهما مصطلحان لمفهوم واحد.

جاء في لسان العرب: "حرس الشيء يحرسه ويحرسه حرسا: حفظه، واحترس منه: تَحَرَّزَ، وتَحَرَّسْتُ من فلان واحترست منه بمعنى، أي:تحفّظت منه " [19]

ومن هنا فقد عرفوا التكميل وهو بالتالي تعريف للاحتراس فقالوا: "وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفـع ذلـك الوهم". [20]

أمّا الاحتراس في عرف من جعله وجها مستقلا عن التكميل والتتميم ، فهو يقرب من تتميم المعاني وتكميلها ويزيدها دقة وإحكاما ، فمن تعريفاته ما ذكره ابن المعتز وهو من المتقدمين ، قال: الاحتراس : وهو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه دخل ، فيفطن له ، فيأتي بما يخلّصه من ذلك ، وقال ابن أبي الإصبع : والفرق بين الثلاثة أن المعنى قبل التكميل صحيح تام ، ثم يأتي التكميل زيادة يكمل بها حسنه ، إمّا بفنّ زائد ، أو بمعنى ، والتتميم : يأتي ليتم نقص المعنى ، والاحتراس لاحتمال دخل على المعنى ، وإن كان تاما كاملا.

فالاحتراس أو التكميل طريقة من طرائق الإطناب بالزيادة، دقيق المسلك، عظيم الفائدة؛ لأنه في الكلام مظهر من مظاهر فطنة المتكلم وحرصه على صيانة كلامه من أن يفهم منه ما لا يريد ؛ مبالغة في الحيطة والحذر، ولزوما للدقة في تحرير المعنى المراد. فالاحتراس يأتي في الكلام الذي يوهم خلاف المقصود ؛ ليزيل هذا الوهم، ويرفع عنه اللبس، ويبعد عن المعنى ما يمكن أن يوجه إليه من عيب قد يتسّرب إلى ذهن السّامع ، وفي هذا حفظ للمعنى ووقاية له.

وعليه، فالاحتراس مقتضي حال يتطلبه نظم الكلام ؛ صيانة للمعنى من الإبهام ، وهي الغاية نفسها التي من أجلها جاء التكميل ؛ فلذلك لا نرى داعيا للتفريق بينهما ، فكلاهما واحد كما هو ظاهر .

3- الفرق بين التتميم والتكميل :يأتي من وجهين:

أحدهما:أنّ التتميم يكون متما للنقص ، فيجعل النّاقص كاملا ، والتكميل يجعل التّام كاملا.

وفي هذا يقول العلوي : « والتفرقة بين الإكمال والتتميم ظاهرة مع كونهما مشتركين في أنهما إنما زيدا من أجل رفع الوهم عن تخيل ما يحيط من المدح ويُسقطه ،وحاصلها من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، أما من جهة اللفظ فهو :

أن التتميم إنما يقال في شيء نقُص ثم تُمّم بغيره ، بخلاف الإكمال فإنه تام لم ينقص منه شيء ، خلا أنّه أُكمِل بغيره ، فصار الأول بالزيادة تاما ، وصار الثاني بالزيادة كاملا ، وأما من جهة المعنى فهو أنّ التتميم إنما يذكر من أجل رفع احتمال متوهم فلهذا افترقا ، فالإتمام يرفع الخطأ مما ليس ذمّا ، والإكمال يرفع الذّم المتوهم إذا لم يذكر ، فهذا تقرير ما يمكن من التفرقة بينهما ، ومن عرف أمثلتهما تحقق ما ذكرناه » [21]

ويقول ابن أبي الإصبع : « إن التتميم يرد على المعنى الناقص فيتممه ، والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله ، إذ كان الكمال أمرا زائدا على التمام » 22

والثاني : أن التتميم يكون متمما لمعاني النفس ، لا لأغراض الشعر ومقاصده ، والتكميل يكملهما معا، وهذا الذي أشار إليه ابن أبي الإصبع بقوله : « والتتميم لا يكون إلا في

المعاني دون الفنون ، أعني بالمعاني معاني النفس لا معاني البديع ، التي هي أنواعه ، وأعني بالفنون أغراض المتكلم ومقاصده، والتكميل يكون فيهما معا ، هذا إذا لم يرد بالتتميم تتميم الوزن » 23

ولعل مقاربة الأغراض التي يؤديها التكميل والتتميم جعلت المتقدمين يعقدون لهما فصلا واحدا دون تفريق .

4- شواهد قرآنية عن التتميم والتكميل.

من شواهد التّتميم ما نلحظه في قوله تعالى : (وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)[24] ، حيث جاءت (وأنت خير الرازقين) تتميما لما قبلها ، على وجه الاستدلال ،كأنه – عليه السلام – قال: وارزقنا ؛ لأنك خير الرازقين، وقد أظهر التتميم هنا الأدب الجمّ والإقرار العظيم بربوبية الخالق وباستحقاقه العبودية .

يقول سيد قطب معلّقا : « وفي دعاء عيسى بن مريم أدب العبد المجتبى مع إلهه ، ومعرفته بربه ، فهو يناديه : ياالله ، ياربنا . إنني أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السّماء ، تعمنا بالخير والفرحة كالعبد ، فتكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرّازقين»[25]

وللإشارة فإن التتميم نوعان ، منه ما يكون للاحتياط ، ومنه ما يكون للمبالغة ، ومن أمثلة ما يأتي للاحتياط ما جاء في قوله تعالى : « أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ »[26]

فأولها في قوله في وصف الجنّة « أن تكون له جنة من نخيل وأعناب " فالجنة هي ماكانت فيها أشجار وافية ، والتتميم في " من نخيل وأعناب " وهو تتميم نقص لأنه قد يظنّ الظانُّ أنّ الجنة قد تكون فيها أشجار لا تثمر لاقيمة لها ، فتمم النّقص فقال " من نخيل وأعناب" لتكون ذات قيمة ، وقد احتاط في قوله " تجري من تحتها الأنهار " كي لايظن أن هذه الجنّة قد تصفرّ فتمم النّقص احتياطا بأن جعل الأنهار تجري من تحتها ، وهذا يدلّ على دوام خضرتها.

ثم انتقل إلى وصف صاحب الجنّة فقال" وأصابه الكِبَرُ " فكان هذا التتميم احتياط فوصف صاحب الجنّة بأنه غير قادر على إرجاعها إن فقدها ، ثم يقول " وله ذرية" وبعدها قال احتياطا " ضعفاء " أي غير قادرين على نصرته إن ضاعت منهم الجنة ، فلو لم يتمم النّقص ،واكتفى بقوله (" وله ذرية " لقال قائل : إنهم يستطيعون أن يُرْجِعُوا ما فقده أبوهم ، فاحتاط لذلك بوصفهم أنهم (ضعفاء).

ثم انتقل إلى وصف ما حدث لهذه الجنّة فقال (فأصابها إعصار) وتمم احتياطا بقوله (فيه نار) حتى يؤكد أن هذه الجنة أبيدت عن آخرها ، فلو اكتفى بقوله (فأصابها إعصار) لظُنَّ أنّ التدمير شملها جزئيا ، وليؤكد أن التدمير كان كاملا ، عبّر عن ذلك بقوله : (فيه نار).

يقول سيد قطب معلقا على هذا المشهد وما فيه من دقة الخطاب : « وهكذا يقوم المشهد الحي الشّاخص ، بما فيه أول الأمر من رضى ورفه ومتعة ؛ وما فيه من نضارة وروح وجمال ، ثم بما يعصف به عصفا من إعصار فيه نار... يقوم هذا المشهد العجيب بالإيحاء الشعوري الرعيب الذي لا يدع مجالا للتردد في الاختيار، قبل أن تذهب فرصة الاختيار ، وقبل أن يصيب الجنّة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نار... وبعد فإنّ التناسق الدقيق الجميل الملحوظ في تركيب كل مشهد على حدة وفي طريقة عرضه وتنسيقه هذا التّناسق لا يقف عند المشاهد فرادى بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد مجتمعة من بدئها في هذا الدرس إلى منتهاها.

إنها جميعا تعرض في محيط متجانس ، محيط زراعي ، حبة أنبتت سبع سنابل ، صفوان عليه تراب فأصابه وابل ، جنّة بربوة فآتت أكلها ضعفين ، جنة من نخيل وأعناب حتى الوابل والطل والإعصار التي تكمل محيط الزراعة لم يخل منها محيط العرض الفني المثير.

وهي الحقيقة الكبيرة وراء العرض الفني المثير ، حقيقة الصلة بين النّفس البشرية والتربة الأرضية ، حقيقة الأصل الواحد ، وحقيقة الطبيعة الواحدة ، وحقيقة الحياة النابتة في النّفس وفي التربة على السواء ، وحقيقة المحق الذي يصيب هذه الحياة في النفس وفي التربة على السواء ».[27]

فالتتميم كما نرى في هذه الآية لم تقف فائدته عند حدود الجملة التي ورد فيها ، بل تعدته ليشمل السياق كله ، وليتناسق تناسقا جميلا مع المشهد ككل ويساهم في رسم صورة بلاغية دقيقة ، ويرتفع بدقة الخطاب وجماليته في هذا الموقع.

ومن أمثلة أيضا ، قوله تعالى: « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[28]

فقد ذكر في مطلع الآية (مَن) التي تضرب للعاقل على إطلاقها ، ثم تمم النقص وجبره بقوله بعدها (من ذكر وأنثى) ، فلو ترك اللفظ على إطلاقه لأخذه المتلقون مآخذ لا يرمي إليها الخطاب هنا ؛ إذ لتوهموا أن المقصود جنسٌ دون جنس ، فسدّ عليهم باب كلّ تأويل بأن قال (من ذكر وأنثى).

أما ما ورد للمبالغة فنجده في قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » [29]

في قوله تعالى :(ولا طائر يطير بجناحيه): كان يمكن في غير القرآن أن يكتفي بقول (ولا طائر) فلأي معنى زيدت (يطير بجناحيه)؟

العرب تستعمل كلمة الطائر لما يطير ولما لا يطير كالنعام والدجاج واستعملوها مجازاً للدلالة على السرعة فيقال : طر بحاجتي أي أسرع. والشاعر يقول عن الخيل:

صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سِيَاطَنَا *** فَطَارَتْ بِهاَ أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ

فهو لا يعني أنها طارت في الجو ،وإنما يعني أسرعت ، فحتى يُعلم أن المقصود هو هذا الذي يطير وليست هذه المعاني تمّ النقص بقوله (يطير) ليوحي أن المقصود طيرا يطير لا غير ، ثم زاد على ذلك فقال (بجناحيه) ، ليدفع أيّ توهم كون ذلك أن الطائر بلا جناحين ، ولعله طار من عَلِ مثلا ، فالتتميم هنا جاء مبالغة في التدقيق لتصل الصورة واضحة للمتلقي دون لَبْسٍ ، ولتكتمل الصورة بذلك وتحقق الغاية بتذكير الخالق عز وجل بنعمته على هذا المخلوق الذي جعله يطير وذكر الجناحين لبيان فضل الله سبحانه وتعالى بخلق الجناحين ؛ إذ لو كان بجناح واحد لجنح في طيره وسقط .

وكقوله تعالى : (وآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى واليَتَامَي) [30] ، فقوله (على حبّه) تتميم لأن المعنى تم قبلها ، ومثله قوله تعالى: (لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون) [31] ، فقوله (مما تحبون) تتميم لأن المعنى تم بقوله (تنفقوا).

أما التكميل فقد ورد في مواضع كثيرة في القرآن الكريم تشهد بجمالية هذا الأسلوب ، وبإضافاته البيانية المتميّزة للنص القرآني، من ذلك قوله تعالى: « فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ »[32]

فالتكميل جاء في قوله تعالى (أعزة على الكافرين) إذ لو وقف عند قوله (أذلّة على المؤمنين) لكان المدح تاما ، ولكنه زاد فكمّله بقوله (أعزة على الكافرين) فالذلة التي ذكرها في هؤلاء ، ليست ذلة ومهانة ، وإنما هي خفض جناح وتواضع ومحبة ، وما يتعارض هذا مع كونهم أعزة في نفوسهم وعلى أعدائهم ، فالصورة واحدة توحي بحسن خلقهم وبعزة نفوسهم وقوتها.

ومنه قوله تعالى: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)[33] ، فقوله: (من غير سوء) تكميل جيء به في آخر الكلام لدفع توهم أن يكون هذا البياض الذي ظهرت عليه يد موسى عليه السلام ناتجا عن مرض كالبرص والبهق وما شابههما.[34]

كما نجد التكميل في قوله تعالى : « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ »35. فقد جاء قوله تعالى (وَرَبُّكَ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَة) مطلقا دون تحديد يصفه سبحانه وتعالى ، ودفعا لأي توهم يظن به أن الرحمة قد تشمل المجرمين أيضا ، كمل الوصف ووضّحه ، فقال : (ولاَيُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِين).

ومن المعجز في هذا قوله تعالى: (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)36.

فقوله – عز وجل-: (غير أولي الضرر) احتراس يدفع توهم أن القاعد بعذر داخل في مفهوم عدم الاستواء الذي أشارت إليه الآية الكريمة؛ لأن المتخلف بعذر له أجر

وثبت أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال كنت اكتب لرسول الله (لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ من المُؤْمِنِين والمُجَاهِدُون في سَبِيلِ الله) فجاء عبد الله بن أم مكتوم فقال: يا رسول الله ، إني أحب الجهاد في سبيل اله ، ولكن بي من العذر ما ترى.
قال زيد: فثقلت فَخِذُ رسول الله على فخذي حتى خشيتُ أن ترضها ثم قال : أكتب (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله
فالآية بصورتها الأولى توهم أن لا قاعد بعذر داخل في مفهوم عدم الاستواء المذكور ، فأتى بجملة « غير أولي الضرر » لترفع هذا الوهم .37
ومنه قوله تعالى (ويُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وكَهْلَا)38 فلو وقف الخطاب عند قوله (في المهد) لظن أن عيسى سيكلم الناس في المهد فقط لكن القرآن احترس بأن قال (وكهلا) ففهم أنه سيكلم الناس في المهد وفي غيره .
ومثله قوله تعالى(وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا)39

5- خاتمـــــــــة

- أن أسلوب التكميل والتتميم فنان بديعان لهما أثرهما البلاغي على الخطاب بشكل لافت.
- هناك خلط كبير بين هذه المصطلحات وبين مصطلحات أخرى كثيرة كالاحتراس والإيغال والاعتراض وذلك لتقاربهما مضمونا وشكلا.
- من الخطأ عدّ التتميم والتكميل مظهران من مظاهر الإطناب في القرآن الكريم ، حيث أظهرت النماذج التي حللناها فائدتهما وأثرهما على المعنى.
- إضافة إلى ما يضفيه هذان الأسلوبان للنص القرآني من دقة وإحكام ، هناك زيادة في المعنى وفي الإبلاغ.
- أن التتميم والتكميل لم تقف حدودهما عند الجملة ، بل امتدا ليتناسقا مع السياق الذي وردا فيه ، ومع المشهد الذي يراد رسمه.

الهوامش:

1- لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة ،د ط، دت ،باب التاء، مادة (تمم) ، ص 447.
2 - البرهان في علوم القرآن ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، ط1 ، 1376 ، 1957 ،ج3، ص70.
3- شرح الكافية البديعية ، صفي الدين الحلي ، تح: نسيب نشاوي ، مطبوعات مجمع اللغة ، ص119.
4- العمدة ، ابن رشيق، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار الجيل ، ط5 ، 1981 ، ص142.
5- المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم ، عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ، القاهرة، دط، 1429ه،2008م ، ص264.
6- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز ، يحي بن حمزة العلوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1410 ه ، 1980 م ، ص452.

7 - لسان العرب ، ابن منظور،باب الكاف ، مادة (كمل) ، ص3930.
8 - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وإعجاز القرآن ، ابن أبي الإصبع المصري ، تح: حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، دط ، دت ،ج 2 ، ص 245.
9 - المصدر نفسه ، ج2،ص 245-246.
10 - شرح شافية ابن الحاجب ، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي ، تح: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، دط ، 1402 ه ، 1982م ، ص 142.
11- ينظر: الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية ، محمود شاكر القطان ، دار الفكر ، القاهرة ، ص49.
12- ينظر : الإيضاح في علوم المعاني والبيان والبديع ، جلال الدين بن محمد القزويني ، تح: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1442ه ، 2003م، ج 1، ص 310..
13- الصناعتين ، العسكري أبو الحسن هلال بن عبد الله ، الصناعتين ، تح: محمد ابو الفضل إبراهيم ، ط1، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1952، ص405.
14- الإيضاح ، القزويني ، ج 1، ص 310.
15- ينظر: نظرات في علم المعاني ، عبد المنعم الأشقر 316/2، والاحتراس في ضوء القرآن الكريم ، قاسم علي خليفة ، ص553.
16-المائدة:54
17 : النمل : 12
18 – مع أن أكثر علماء البلاغة قد جعل الاحتراس والتكميل شيئا واحدا؛ غير أننا نجد بعض المتأخرين من أصحاب البديعيات يرون أن كلا منهما نوع منفرد ومستقل عن الآخر، ومن هؤلاء العلماء ابن أبي الأصبع المصري المتوفى 654هـ، وصفي الدين الحلى المتوفى 750هـ، وابن معصوم المدني صاحب أنوار الربيع في أنواع البديع.. فالاحتراس عندهم: "هو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل، فيفطن له، فيأتي بما يخلصه من ذلك".. والمتأمل يجد أن هذا المفهوم والأمثلة التي مثلوا بها لهذا الباب تتطابق مع ما ذهب إليه أكثر علماء المعاني في تعريفهم للاحتراس والتكميل.. غير أن أصحاب البديعيات جعلوا التكميل نوعا آخر غير الاحتراس، وعرفوه بقولهم: "هو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من معاني المدح أو غيره من فنون الشعر وأغراضه، ثم يرى مدحه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل، فيكمله بمعنى آخر في غير ذلك الفصل الذي أتى به أولا".. والحق أن المتأمل لا يكاد يجد فرقا بينا فيما ذهبوا إليه ، إذ لا يعدو إلا أن يكون تفريعا للمصطلحات الذي أغرم به أصحاب البديعيات، كما أن الأمثلة التي مثلوا بها للتكميل بمفهومهم، هي نفس الأمثلة التي مثل بها علماء المعاني وجمهور البلاغيين للاحتراس والتكميل، وقد أدى هذا التفريغ للمصطلحات عند أصحاب البديعيات إلى الخلط بين التكميل والاعتراض، نلحظ هذا في بعض الأمثلة التي مثلوا بها للتكميل، ومن ذلك قول الشاعر:
إن الثمانين –وبلغتها- قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
ولا يخفى أن هذا الشاهد من الاعتراض وليس من التكميل، وهو مشهور في بابه. (راجع: تحرير التجبير ص/245 وما بعدها، وشرح الكافية البديعية ص/316، 142، وأنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم المدني 185/5 وما بعدها، تحقيق/ شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان ، العراق ، ط 1 ، 1389 ه – 1969 م.
19 - لسان العرب ابن منظور ،باب الحاء ، مادة(حرس)، ص 742.
20 – الإيضاح، القزويني ، ج1، ص310، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي ، ج 2، ص74.
21- الطراز ، العلوي ، ص452.
22- تحرير التحبير ، ابن أبي الإصبع ، ص 362.
23- المصدر نفسه ، ص 362.
24- ينظر: الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية ، محمود شاكر القطان ص49، الاحتراس في ضوء القرآن الكريم دراسة بلاغية تطبيقية ، قاسم إسماعيل علي خليفة ص551، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة، العدد (16) عام 1998.. ومن صور الإطناب: التكميل والتتميم دراسة تأريخية تطبيقية ، عبد الله محمد سليمان هنداوي ،ص570، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق ، مصر ،العدد (17) عام 1997م.
25- المائدة: 114.

26- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان، ط34، 1425هـ2004م ، مج:2، ص1000.
27 - البقرة : 266.
28- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، مج 1 ، ص 310.
29 - النحل: 97.
30 الأنعام : 38.
31- البقرة : 177
32: آل عمران 92.
33 - المائدة :54.
34 - سورة النحل /12.
35 - ينظر: روح المعاني الألوسي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط 4 ، 1405هـ- 1985م ، ج16،ص 180. وتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ،الدار التونسية للطبع والنشر، تونس 1984م، ج 16 ، ص208
36- الأنعام : 147
37- ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن ، عبد الفتاح لا شين ، ص 264.
38- آل عمران 46.
39-يوسف : 68.